مفهوم الاختلاف في فلسفة ميشال سير

The concept of difference in the philosophy of Michel Serres.

تبان مصطفى

جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة02، moustaphataban@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/09/11 تاريخ القبول: 2022/07/01 تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص:

يبرز مفهوم الاختلاف في فلسفة **ميشال سير**، من خلال دعوته نحو التّواصل بين مختلف الحقول المعرفية، من علمية وأدبيّة وغيرها، في شكل إنسكلوبيديا حرّة لا تؤمن بفكرة المركز أو النّقطة الثابتة أو المرجع، مثلما هو الأمر في إنسكلوبيديا **أوغست كونت** وغيره، بدعوته نحو إقصاء الكثير من المعارف، تحت ذريعة أنّ المعرفة التي ليست بعلمية ليست بمعرفة بل جهل، ليؤسس بذلك **ميشال سير**، ذلك العارف الذي يصطلح على تسميته بالعارف الثالث، والذي يقوم بتلحيمات إبستمولوجية بين الكثير من الحقول المعرفية، على اعتبار أنّ المعرفة ليست حكرا على مجال أو علم معيّن بل هي مترامية الأطراف، ولن نتمكن من الوصول إلى ذلك إلّا من تحويل الابستمولوجيا نحو أنتروبولوجيا للعلوم.

كلمات مفتاحية: الاختلاف، العارف الثالث، الإنسكلوبيديا، الأسطورة، فكرة التعدّديّة.

Abstract:

The concept of difference emerges in **Michel Serres**'s philosophy, through his call for communication between the various fields of knowledge, scientific, literary and others, in the form of a free encyclopedia that does not believe in the idea of the center, fixed point or reference, as is the case in the Encyclopedia of **Auguste Comte** and others, in his call for the exclusion of many Of knowledge, under the pretext that knowledge that is not scientific is not knowledge but rather ignorance, to establish **Michel Serres**, that knower who is termed as the third knower, and who makes epistemological connections between many fields of knowledge, given that knowledge is not restricted to a specific field or science. Rather, it is sprawling, and we will only be able to reach this by transforming epistemology into an anthropology of science.

Keywords: Difference, the third knower, encyclopedia, myth, the idea of pluralism.

مقدمة:

إنّ فلسفة **ميشال سير**[1] تقوم في حقيقتها على المفاهيم التالية: الفوضى واللاّنظام، الشّواش والتّعدد، وهي مفاهيم مستوحاة لديه من نظرية الدّيناميكا الحرارية والنّظرية الفوضوية، حيث نجده يرفض فكرة النقطة الثابتة أو المرجعية وفكرة العلم الملكي أو الرئيس، وذلك بدعوته نحو التواصل بين كل الحقول المعرفية بدون إقصاء لأي منها، وهذا ما يجعلنا نُقر مبدئيا بوجود مكانة مميَّزة لمفهوم الاختلاف في فلسفته متخذا في سبيل ذلك منهج التّحليل بالأساس، حيث قمنا بتحليل الأفكار الأساسيّة لكشفها وتوضيحها أكثر، بالإضافة إلى اعتمادنا على منهج المقارنة في بعض المحطّات من أجل مقارنة أفكار **ميشال سير** بأفكار فلاسفة وإبستمولوجيّات لها صلة به **كغاستون باشلار**.

وعلى ضوء هذا نتساءل: كيف يمكن أن يكون مفهوم الاختلاف حجر أساس في تشييد المشروع الانسكلوبيدي عند ميشال سير الذي لا يؤمن لا بالحدود ولا بالقيود بين الحقول المعرفية المختلفة؟

إن اهتمام **ميشال سير** بمفهوم الاختلاف يتضح من خلال إقامة ابستمولوجيته على الاتّصال، على عكس الكثير من الابستمولوجيات القائمة على القطيعة، عن طريق تبادل المفاهيم والمناهج والمواضيع بين مختلف الحقول المعرفية من علوم دقيقة وانسانية، شعر، أساطير وأدب، وإلغاء لتلك الحدود المرسومة بينها، وبذلك توقيف فلسفات المرجع.

وخلفية فلسفته هذه أنه " ضحية لعديد من النزاعات المسلّحة، لذلك حدّد عمله الابستمولوجي كمؤسّسة لإعادة السلام، يضع نفسه ضد سلسلة من المواضيع اليومية التمييزية وحتى العدوانية "[2]، حيث أنه عايش الحرب العالمية الثانية وما أسفرت عنه من تقتيل وتشريد وتدمير.

لقد شهدت السّاحة المعرفية إقصاء الكثير من الحقول المعرفية، بحجة أنها لا تتوفّر على الدقة واليقين، وعليه فالمعرفة الحقة هي المعرفة العلمية وما عداها فلا غاية مرجوة منها، يقول **ميشال سير**:" الذي حدث في القرن 18م والذي سعى إلى إزالة العقلانية من أي شيء لم يكن علما، هو محاولة العلم لتولي مجمل العقل. تلك المناطق التي تفتقر إلى العقل تشمل فجأة الدين وبالطبع الأدب والعلوم الانسانية[...] وسيؤكد هذا القرار المهم للغاية القرن 19م، القرن الحاسم من خلال حصر جميع الحركات الأدبية في الخرافات والأحلام، وفي هذا الصدد فإنّ تاريخ العلوم والابستمولوجيا والعلماء وحتى الرجل في الشارع تابع هذه الفكرة [...] معقول سابقا وغير معقول فيما بعد، ماذا يمكن أن نسمي هذا باستثناء

---

[1]- **ميشال سير فيلسوف فرنسي مختص في فلسفة العلوم وتاريخها من مواليد 1930م، لديه الكثير من المؤلفات أهمها: سلسلة هرمس في خمسة أجزاء، الحواس الخمس، أصول الهندسة و الأصبع الصغيرة.**

[2] - **Brice Favier-Ambrosini et Matthieu Quidu, l'ancrage symbolique des œuvres épistémologiques de Gaston Bachelard, Michel Serres et Edgar Morin, revue philosophique de Louvain, 2015, vol. 113, N 4, 2015, p 665.**

تحيز؟ "[1]، كما يقول عن **باشلار**:" يستهلك القطيعة بين العلوم والانسانيات، لكن نحن ليس لدينا لا دماغان ولا جسدان ولا روحان، الهجين هو ثقافتنا المثالية "[2].

إنّ رفض **ميشال سير** لمنطق الدّقة واليقين في ضبط مفهوم المعرفة، آتٍ من كونه منطق يتسم بالصّرامة والصّلابة والتّحجّر، يعطي الأولوية للثبات البارمنيدي على التّغيّر الهرقليدي وللهوية على المزيج، كما أنّ تصدّيه له نابع من أنّ الكل ليس صلب في مجمله، والبناء الصلب والثابت لا يمكنه فهم التقلّبات، ومنه فهو يظهر عداءه للمواضيع اليومية الباحثة على الاتساق مفضلا التّعدّدية والتّفردات معبّرا عن ذلك بـ: مفتاح واحد لا يمكنه فتح كل الأقفال[3]، حيث أنّ عمله الابستمولوجي يستند فيه على المادة السائلة لاتّصافها باللّيونة ممّا يسهّل الأمر المزج بينها، يقول:" المواد الصّلبة ليست سوى سوائل لزجة أكثر بقليل من غيرها "[4].

وفي نفس السّياق أي الفوضى، تعتبر فلسفة **ميشال سير** تحدٍّ لسلسلة من المفاهيم الأنطولوجية كالزمانية الخطية والغائية، المكان الاقليدي ومنطق الإقصاء والانفصال، وتمجيد في الجهة المقابلة لمفاهيم الفوضى والغموض والتفاعل، وذلك في صورة نسيج أو تركيبة مناهضة للمنطق الأرسطي ومبادئه كالهوية وعدم التناقض والثالث المرفوع، يقول:" الفوضى مفتوحة، فجواتها واسعة وهي ليست نظاما مغلقا. من أجل القانون يجب على المرء أن يحدّد أو أن يغلق الحدود "[5]، ويضيف أيضا:" الفوضى هي منتشرة، ليست نظام، إنّها تعدد، إنّها متعدّدة وغير متوقَّعة "[6].

" ينتقد **سير** في كتابه éclaircissements (1992) أوّلا وقبل كل شيء تصور الزمكان الهندسي الاقليدي والخطي، حيث لا يتدفّق الزمن متريا وصفائحيا وفقا لخط أو خطة، لكن بطريقة مضطربة وفوضوية: إنّه يتقطّر. وبذلك يرفض ايديولوجيّة التقدم هذه القائمة على القطيعة الصريحة مع الماضي،

[1]- Ibidem.

[2]- Ibid, p. 664.

[3]- Brice Favier-Ambrosini et Matthieu Quidu, l'ancrage symbolique des œuvres épistémologiques de Gaston Bachelard, Michel Serres et Edgar Morin, Op.cit., p655.

[4]- Ibid, p 656.

[5]- Serres Michel, Genèse, Grasset, Paris, 1982, p 162.

[6]- Ibid, p 162.

الذي لا رجعة إليه وقد عفا عليه الزمن، لكونها ايديولوجيا امبرياليّة ومتقطِّعة "[1]، بمعنى أنّه ضد الزمانية التقدّمية والخطية التي ترى أنّ التّطور لا يتحقّق إلاّ من خلال تجاوز الماضي وطمسه، وإنّما الزمانية الحقّة في نظره هي تلك الزمانية المضطربة وليست الاقليدية الخطية، مثلها مثل تدفّق ماء النهر الذي يعرف الاضطراب والتعرج في التّدفق، وذلك لغاية وحيدة وهي توثيق الصلة بين الحقول المعرفية المختلفة عبر كل الأنحاء والأزمان وعدم إلغاء لأيٍّ منها، يقول معلِّقا عن ذلك:" في الأوقات السابقة كان يسمى هذا قطيعة، هناك فجوة بين ذرات **لوكريتوس** وتلك لـ **بيرين** (Perrin)، بين الأساطير القديمة والعلوم المعاصرة، مما يجعل الماضي ماضٍ والحاضر أصيل، هذه الأطروحة قد بدت لي شبه دينية: تفترض أنه بين الأزمنة الغابرة منذ فترة طويلة والعصر الجديد، هنالك بعض المجيء والولادة في زمن جديد "[2]. فهو يشبه تاريخ العلوم التقدّمي هذا، الذي يركز على آخر التطوّرات الحاصلة في الساحة العلمية في الفترة المعاصرة وعلى إلغاء ما قبلها وما عداها من حقول معرفية: أساطير، روايات وآداب، بتاريخ الدّيانات حيث بالرغم من أنّها جميعا تدعو إلى التّوحيد وجميعها من إله واحد، إلاّ أنّ هنالك صراعات فيما بينها وتكفير لبعضها البعض بدافع من الأنانيّة والتعصّب، يقول **سير**:" بالمقارنة مع التاريخ الديني، يبدو أنّ تاريخ العلوم سطحي وحديث مثل المناظر الطبيعية السطحية والواضحة تماما والمتلألئة، بل أكثر من ذلك، عندما تدرس التاريخ الديني بالتفصيل فإن تاريخ العلوم يبدو أنه يقلِّده أو يكرِّره "[3].

يرفض **ميشال سير** جملة وتفصيلا منطق الاقصاء، حيث أنّه لا يقصي ولا فئة أو فرد من المعرفة، لكون المعرفة جماعية وليست حكرا على فرد معين أو فئة، على عكس ما هو عليه الحال لدى بعض الاتجاهات، حيث أنها تؤدلج المعرفة أو تلوِّنها بلون خاص، قاصدا بذلك الاتجاه الوضعي، يقول:" من ناحية هناك اختفاء تدريجي عظيم لأعظم المؤلفين الذين تشير ثقافتهم القديمة إلى عصر الشعر القديم الذي لا يحتاجه أحد، ومن ناحية أخرى اعتبار العلماء المعاصرين الوحيدين الذين يتكلمون عن الحقيقة حول العالم أو الدماغ، عن الرياضيات أو الفيزياء. نظرا لأنك تعرف الولايات المتحدة جيدا فأنت تعرف بكل سرور أنها تضفي أوربا على بومبي (Pompier) أو عصر الكاتدرائيات العظيمة، إنها طريقة ممتازة للقول: اليوم نحن نتقدم بينما أنت المسؤول عن المتاحف، التاريخ يضفي انطباعا معينا عن الواقع لتعزيز الذات "[4].

---

[1]- Brice Favier-Ambrosini et Matthieu Quidu, l'ancrage symbolique des œuvres épistémologiques de Gaston Bachelard, Michel Serres et Edgar Morin, Op.cit., p. 654.

[2]- Serres Michel with Bruno Latour, Conversation on science, culture, and time, translated by Roxanne Lapidus, édition François Bourin, France, 1990, p 48.

[3]- Serres Michel with Bruno Latour, Conversation on science, culture, and time, Op.cit., p. 36.

[4]- Ibid, p. 51.

كما قام ببناء خوارزمية من أشجار المعرفة، جعلها تنطلق من ثلاث مسلمات وهي كالتالي:

" المسلمة 1: **'الكل يعرف'**: كل إنسان يعرف شيئا وذلك لأنه عاش، والمعرفة هي بعد الكائن وغير منفصلة على التجربة الحسية وبالتالي مفردة لكل فرد. هذه الحقيقة الأولى تعيد لكل أحد كرامته في وجه المعرفة.

المسلمة 2: **'نحن لا نعرف أبدا'**: إنه يعترف باستحالة المعرفة المطلقة والكاملة، علاوة على ذلك المعرفة ليست مستقرة وهي قابلة للتغير. إنّه يدعو الى التواضع واحترام معارف الآخرين...

المسلمة03: **'أنا لا أعرف لكن الآخر يعرف'**: كل المعرفة هي في الانسانية، وكل واحد جالبا للمعرفة مساحة لا مثيل لها، كما أن الإنسانية جمعاء تستطيع حمل المعرفة بكل تنوعها "[1].

وعليه فالغاية من المشروع الابستمولوجي عند **ميشال سير**، هو تشييد انسكلوبيديا لا تؤمن بفكرة المركزية ولا الانقسام، وإنّما بالوحدة العرفية والجماعة العارفة.

1- قوانين الفيزياء المعاصرة والامتداد التّاريخي لها في أشعار لوكريس:

إنّ نص **لوكريس** في حقيقته عرضٌ لمعرفة فيزيائية لفترة قبل التّاريخ مجهولة، كما أنّه يعالج موضوعًا أخلاقيًا ودينيًا وسياسيًا، على اعتبار أنّ الغاية من نصّه هذا هي تهذيب العالم الذي يعاني الكثير من العنف والصّراع بسبب إيديولوجي أو عقائدي، وكذلك التّمايز بين الدّنس والمقدّس، كون أنّ كلّ فرقة أو جماعة تنظر إلى نفسها نظرة دوغمائيّة، جاعلةً إيّاها مركزًا للكون ومخطِّئة للآخر، يقول **ميشال سير**:" العنف هو مركّبٌ عظيم لعلاقات بين النّاس، هو هنا، إنّه يجري، يمكن أن يكون قاتلاً، قد يكون مصيرنا وأكبر مخاطرنا، إنّه أكبر فجوة (écart) لدينا في التّوازن. لوكريس يعرف جيّدًا تطهير التّضحية، يعترف بالحل المقدّس ويتجنّبه، كما أنّه يعرف أيضًا الحل القضائي الذي هو فقط ترجمة للأوّل بواسطة ترشيد الآثام "[2]، أي ضرورة التّخلص من المقدّس كونه سبب الشّر والعنف، ويدعو إلى ضرورة التّعايش مع بعض بالرّغم من الاختلافات والتّمايزات، يقول:" انسوا المقدّس، هذا يعني انسوا العنف الذي يؤسّسه وانسوا الدّيني الذي يربط فيما بين النّاس "[3]، وذلك من خلال الالتفاف حول علمٍ خالٍ من القيود أو الحتميات.

---

[1]- Marcel Nguimbi et Clarisse Okandzi Mouandeke, L'arbre de la connaissance (Popper versus Descartes), L'harmattan, Paris, 2017, p. 16.

[2]- Serres Michel, la naissance de la physique dans le texte de Lucrèce, les éditions de Minuit, paris, 1998, p. 163.

[3]- Ibid, p. 165.

يعتقد **ميشال سير** أن **ميميوس** هو إله بين النّاس ساهم في تغيير الإنسانيّة نحو الأفضل، لكن مع ذلك عاد الخراب الذي دمّر أثينا وأرجع العنف والموت، وذلك لشيء واحد فقط وهو أنّ هنالك مادّتين تكوّنان الأشياء: الذّرات والفراغ، ويقصد بالفراغ هو التّطهير أو التّكفير عن الذّنوب (catharsis)، وهو مفهوم فيزيائي، في حين المادة الثّانية أي الذّرات هي كذلك مصطلح فيزيائي يُقصد به التّطهير[1]، وعليه من النّاحية الفيزيائية هنالك عنف على اعتبار أنّ كلّ شيء يتكوّن من المقدّس والذي هو ذرات وفراغ، مما يجعلنا نقول أنّ ما يصمّم الطّبيعة هو المقدّس وليس شيئًا آخر وما يتولد عنه بذلك عنف كضرورة حتمية.

ويضيف قائلاً:" تمييز المتجانس وغير المتجانس، المتّصل والمتقطّع سيطرا على وصف الزّمان والمكان عند **ميرتشا الياده** (Mircéa Eliade) مثلاً، المدنّس: الفضاء هو متساوي الخواص (isotrope)، المقدّس فإنّه ليس كما يقول. أكثر، الزّمن المدنّس يجري باستمرار لكن المقدّس يقدّم قطائع. من هذا، الهندسة قطعٌ للقداسة، تشكّل حيّز غير متمايز "[2]. فالمقدّس مركب ضروري في هذا الكون يستحيل التّخلص منه، سواء في الزّمن أو المكان أو في أيّ مجال آخر، وهذا ما أكّد عليه **الياد ميرتشا** في كتابه (المقدّس والمدنّس)، بوصفه ينتشل الإنسان من الفوضى إلى التّنظيم.

لكن هذه ليست دعوة – بالنسبة **لميشال سير**- لإجراء تمايز بين المدنّس والمقدّس، بل ضرورة التّعايش فيما بينهما أو بشكل آخر المزج بينهما في قالب واحد.

2- جول فرن بوصفه وريثا لأوجست كونت في نظر ميشال سير:

إنّ الإنسكلوبيديا المنشودة عند **سير** ليست خريطة معرفية، (هذه الصّورة رفضها **ليبنتز**، فالعلوم ليست كقارات ولكن كبحر متواصل مقسَّم إلى محيطات) بل شبكة ليس لها مركزٌ حيث أنّ العلاقة بين المعارف متعدِّدة، ومن هذه الشبكة **لليبنتز** أبقى **سير** على كلّ شيء عدا النّقطة الثّابتة والمركز والعلم الملكي[3]، كما أنّه وبوصفه مؤرخ علوم "الحريص على اظهار الوحدة المعرفية للعصر الوضعي ونشر افكار الديناميكا الحرارية طوال القرن 19م، سيُظهر من جانبه أنه إذا كانت جميع النصوص تتحدث مع بعضها البعض، فهذا يعني أن الفرق بين نص المعرفة ونص الخيال يتم الغاؤه [...] معارضة الحقيقة والخطأ أو إذا فضّل المرء العلم والخرافة معارضة والتي هي مبدأ الوضعية تظهر عندئذ سطحية

[1]- **Ibidem.**

[2]- **Serres Michel, les origines de la géométrie, Flammarion, paris, 1993, p.129.**

[3]- **Christiane Frémont, philosophie pour le temps présent, cahiers de l'Herne Michel Serres, édition de l'Herne, 2010, p. 18.**

ومدرسية"[1]، وكذلك يؤسس انطلاقا من عمل **فيرن** من جهة رسوخ في الفكر الوضعي الطابع العتيق، ومن جانب آخر انتشار الأفكار من الديناميكا الحرارية، والآثار التي يسوقها هذا العلم الشاب[2].

لكن هذا التعايش بين الأساطير والمعرفة لا يقتصر على **فيرن** فقط بل نجده أيضا عند **زولا وسيغموند فرويد**، و" كذلك تُعدّ دروس **ميشال سير** فتحًا لفضاء الحرية، انتقاداته موجّهة لحرَّاس المعبد الذين يقدِّمون العلم بعزله في القارة التي تعلّق بها، حيث أنّ هذه الانتقادات سمحت برؤية أخرى لعقلانية العلم "[3]، وذلك ردا وكما قلنا سابقا على الفلسفة الوضعية التي تقدِّس المعرفة العلمية بحجّة أنّها موضوعية في حين تقلِّل من شأن بقية المعارف وتزيحها بداعي أنّها لا ترقى إلى مستوى المعرفة السّابق ذكرها.

3- فكرة التعددية في فلسفة مشال سير:

يرى **ميشال سير** وكما أسلفنا أنّ العمل الفلسفي الحقيقي هو الذي يؤمن بفكرة التّعددية ويسلِّم بالفوضى واللاّنظام والنِّسبية كمفاهيم أساسية في السّاحة العلمية، وعليه يُعدُّ هذا الفكر المشبع باللاّنظام والتّعدد والاضطراب، ما هو في الحقيقة إلاّ انعكاس للعقلانية المعاصرة التي أصبحت تؤمن بمفاهيم كانت في زمن ما غريبة على السّاحة العلمية كالنّسبية والمركّب، يقول **سير** في صورة مجازية:" لا إلى أقصى اليمين ولا إلى أقصى الشّمال وإحترس من الوادي ! قمْ بقيادة هذا القطيع من الأفكار على سفح الجبل المكشوف قليلاً، أين هنالك ذئب من جهة والجبل الجليدي في الجانب الآخر وفي الأسفل الوادي، هذا هو التّفكير "[4]، بمعنى ليس هنالك فكرة واحدة بل تعدّدية من الأفكار والتي قد تكون متناقضة لكن الفلسفة الحقيقية هي التي تعمل على الرّبط بينها واحتوائها جميعًا.

ودليله على ذلك أنّ فيزياء الاضطراب تحمل تناقضًا، جريانا متوازيا وبنية فوضوية في الآن نفسه، ففي النّظرة الأولى مخطَّط منظَّم حيث أنّ الذّرات تجري في اتجاه واحد أي بطريقة متوازية لا تختلط ولا تتصادم، لكن ما يحدث بعد ذلك أنّ اللاّنظام يظهر من النِّظام، كما أنّ الأشياء والعالم تتكوّن طبيعيا انطلاقا من الاضطراب الذّري أي أنّ النّظام يظهر كذلك من اللاّنظام. أيضا يُصنِّف الفوضى (chaos) إلى شكلين: ففي الشّكل الأوّل الذرّات المشوَّشة تجري في كلِّ الاتِّجاهات بواسطة إصطداماتٍ وإلتقاءات

[1]- Pierre-Marc Gendron, le voyage extraordinaire. la méthode et le discours de Michel Serres, Op.cit., p. 92.

[2]- Ibid, p. 93.

[3]- Bensaude-Vincent Bernadette, 'Michel Serres, historien des sciences', p8. Article disponible sur le site : https: //halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-0050777.

[4] - Serres Michel, pantopie: de hermès à petite poucette, édition le pommier, Paris, 2014, p. 367.

عديدة صدفويةٍ في فضاءٍ فارغ لانهائي، أما في الشّكل الثّاني فالإلتقاءات والإصطدامات ليست ممكنة وذلك كون الذّرات لا تجري إلاّ في اتجاه واحد، يقول في ذلك:" اللاّنظام هو اللاّمعنى، يمكن لكن المعلومة الوحيدة التي استخلصها من الفوضى (chaos) هو أنّ التّعددية التي لا تُحصى مبعثرة في كلّ الاتّجاهات أو تجري في اتجاه واحد، كما أنّ الذّرات هي حروف"[1].

4- الأسطورة (Le Mythe) كمنهل للمعرفة:

يُعتبر **ميشال سير** من الاتّجاه الرّافض لفكرة التّمييز بين المعرفة العلمية وغير العلمية، والتي سيطرت على الفكر البشري خاصة بعد النّجاحات الباهرة التي حقّقتها المعرفة العلميّة وبالضّبط مع نظرية **نيوتن** في الفيزياء، ألقت بظلالها على حياة الإنسان بالإيجاب تجلّت في الثّورة الصناعيّة والتّطور التّكنولوجي.

ويُقصد بالمعرفة غير العلمية تلك التي على شاكلة المعتقدات الدّينية والميتافيزيقية من تنجيم وسحر وأسطورة، بوصفها في نظر الوضعية المنطقية ساذجة لم تقدّم أيّ خدمة للإنسانية، بل بالعكس من ذلك تماما انعكست عليه بالسّلب وهي سرّ تخلُّفه لما تحويه من خرافات لا يمكن لعقل الإنسان أن يستوعبها، في حين نجد **ميشال سير** يرفض وكما أسلفنا هذا الفصل جملة وتفصيلا، من خلال تأكيده على ضرورة إعادة النّظر والتوجه إلى الأساطير كونها مصدر جدّ ثري بالمعرفة، وقد استعان بها لتوجيه انتقادات للتّأريخ الكلاسيكي للعلوم، وبذلك كتابته كتابة حقيقية، هذا ما نجده في كتبه التّالية:

La naissance de la physique dans le texte de Lucrèce, Thalès au pied de pyramides, la vestale enfouie...etc.

فالشّيء المميّز للأسطورة أنّها تبرز الجانب اللاّعقلاني ودوره في تأسيس المعرفة، على عكس ما ساد عليه الاعتقاد قديما كونها رهينة العقل، كما أنّه بفضل الأسطورة استطاع **ميشال سير** أن يُحوّل الإبستمولوجيا ويطوّرها إلى أنتروبولوجيا للعلوم.

ومن الأساطير البارزة نجد الأساطير الإغريقية، فقد أثّرت تأثيرًا كبيرًا على ثقافة وفنون وآداب الحضارة الغربية، وهي جزءٌ من التّراث الغربي بحيث ما زال الشعراء والفنّانين والفلاسفة يستلهمون منها ومنهم الفيلسوف **سير**. وممّن يعود لهم الفضل في ظهور الأساطير الإغريقية **الشاعر هوميروس** (Homère) ، صاحب الملحمتين الشّهيرتين **الإلياذة والأوديسة**.

كذلك نجد من الفلاسفة أيضا الذين ساروا في نفس الاتّجاه، بجمعهم بين المعرفة العلمية واللاّعلمية الفيلسوف **بول فيرباند**، - وإن كان سبقه في ذلك **كارل بوبر** حيث يعتقد أنّ العلم خرج من

[1]- Serres Michel, La naissance de la physique dans le texte de Lucrèce, Op.cit., p. 178.

رحم الأسطورة وكل عصر له أسطورته - وذلك من خلال تبنّيه لفلسفة فوضوية أو لإبستمولوجيا فوضوية ترفض فكرة المنهج الواحد انطلاقا من مبدأ ' كلّ شيء حسن Tout est bon'، فهذا الأخير يحوي في طيّاته الكثير من الإشارات من بينها: حرية اختيار المناهج ورفض إقصاء أو التّركيز على مجال معرفي واحد، يقول:" ما أسعى إليه ليس إحلال مجموعة واحدة من القواعد العامة، بل مجموعة أخرى كثيرة، وإنّما مرامي هو بالأحرى إقناع القارئ أنّ جميع المنهجيات حتى أكثرها وضوحا لها حدودها "[1]. فهو يُقرّ بمحدودية كلّ المناهج في الوصول بنا إلى الحقيقة، وذلك كونها نسبية حتى تلك المناهج التي نثق في نتائجها ثقة مطلقة، مثلما هو الحال مع المنهج الاستقرائي والمعرفة الاستقرائية، ففي نظره نسبية حيث هنالك جهات أخرى يمكن أن نحصل من خلالها على المعارف فلابدّ من توجيه بوصلتنا نحوها.

5- أسباب اعتراضه على منطق المجادلة:

يعود اعتراض **ميشال سير** على فكرة المجادلة إلى جملة من الأسباب من بينها أنّها عملية غير منتجة وتستغرق وقتًا طويلاً، يقول:" لم تكن لدي رغبة في كامل حياتي الفكرية للقيام بالمجادلة [...] لمَّا كان مشروعنا المرور في كلّ مكان لم يكن لدينا الوقت للمجادلة، لأنّ هذا يتطلّب وقتا وجهدا كبيرا لمجابهة الخصوم "[2]. كما يرى أيضا أنّه إذا ما نظرنا إليها من ناحية التّاريخ وبصفة خاصة من ناحية تاريخ العلم، لنجد أنّها لم تُقدِّم أيّ خدمة بل بالعكس من ذلك كانت عائقا أمام تقدّم البشرية، في حين التّطور العلمي أو التّقدم كان بفضل الإبداع (Invention).

ما نستخلصه من هذا، أنّ المجادلة تقف كعقبة أمام التّقدم العلمي، وذلك نظرا لدورها السّلبي حيث أنّها منطق يرفض الآخر ويدعو إلى التّعصب والصّراع، التّناحر والعنف ولا يخدم البشرية إطلاقًا، كذلك نجده يستدلّ بعلوم السّلوكيات لكي يرفض هذا المنطق، كونها تُعلِّمنا بأنّ عنف الالتزام أي التّعصب لفكرة من الأفكار أو لمعتقدٍ ما ورفض لما عداه يتناسب مع فقدان الأمل المُميت لأحد المتخاصمين أو للاثنين، كما أنّها لا تعمل على الإسراع في المخارج بل فيها الكثير من مضيعة للوقت وإخفاء للحقيقة[3].

1فيرابند بول، العلم في مجتمع حر، ترجمة وتقديم وتعليق السيد نفادي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الكويت، 2001، ص 45.

[2]- Serres Michel, pantopie: de hermès à petite poucette, édition le pommier, Paris, 2014, p. 133.

[3]- Serres Michel, La traduction, les édition de Minuit, Paris, 1974, p. 71.

6- من منطق التّنافر إلى منطق التّقارب بين العلوم الإنسانية والدّقيقة:

يعتقد **ميشال سير** اعتقادا راسخا أنّ بقاء العلم وحيويته بالذّات، يعتمدان على درجة انفتاحه على الآخر الشّعري بالنّسبة إليه، فالعلم يستمر في المسير فقط إذا تلقّى إمدادا وتغذية في الوريد من مصدر ما، من شيء معجز ولا يمكن التّنبؤ به[1]. فالشّعر بالنّسبة إليه أو العلوم الإنسانية بصفة عامة ليست عائقا أمام العلم الطبيعي بل بالعكس من ذلك تماما دعامة له، ويتجلّى ذلك – وكما أسلفنا الذِّكر - من خلال اتخاذه **هرمس** كوسيط بين مختلف المعارف من إنسانية وطبيعية، بغية إلغاء الحواجز المرسومة بينها وبالتّالي التّقريب بينها.

بالرّغم من وجود الكثير من الأصوات المنادية بالفصل بين العلوم المسمّاة بالطّبيعية والعلوم الإنسانية، كون أنّ الأولى دقيقة قابلة للدّراسة العلمية في المخابر، من خلال اصطناع الظّواهر وبالتالي إمكانية التّنبؤ بها، في حين أنّ الثانية بعيدة عن الدراسة العلمية، موضوعها ميتافيزيقي وصفي غير قابل للتّكميم، لكن **ميشال سير**وكما سبق الذكر يعارض هذا التّمييز معارضة مطلقة ويدعو إلى ضرورة التّقريب فيما بينها، يقول:" تعبتُ من هذه الألعاب الخادعة ومن هذا الغش، أحلم بأنّ حياتنا القصيرة تهرب من هذا الوقت المُمل، من الدِّماء والموت. نأمل في العودة إلى لحظة ثقة حيث لا غش ولا خداع، لأجل نظرية معرفة تجمع العلوم الدقيقة والعلوم الإنسانية، معرفة جديدة وإبستمولوجيا جديدة، إنسان جديد وتربية جديدة "[2]، ويقصد بالإنسان الجديد **العارف الثالث** (Le tiers instruit) الذي يجمع بين كلّ المعارف (العلوم الإنسانية والعلوم الدّقيقة)، وذلك أنّ الأولى لا تقل أهمية عن الثانية، فإذا كانت هذه الأخيرة تخدم الإنسان من النّاحية المادية فإنّ الأولى تهتم بدراسته من النّاحية المعنوية. كما أنّ الفضل في هذا التّقارب يعود إلى الدّور الذي لعبته الجامعات في دراسة العلوم المرتبطة بالإنسان، خاصة بعد تلك الآثار السّلبية التي نجمت عن التّطور التّكنولوجي، ممّا أدّى إلى ظهور أزمات أخلاقية تولّدت عنها كذلك أزمات اجتماعية ونفسية، وهذا ما نجده في الدّراسة الاجتماعية التي أجراها **بيير بورديو** (Pierre Bourdieu)، يقول **ميشال سير**:" إليك الفضاء الذي بدأ فيه اليونانيين يرسمون حدودا بواسطة التّعريف والإقصاء،- الذي لا يدخل فيه إلاّ من كان هندسيًا - حيث أنّ القرن 17م الأوربي عاود المعرفة وأيضا سعى نحو تعريف فضاء العلم"[3]، بمعنى أنّ فكرة وضع حدود للعلم أو الفصل بين المعرفة العلمية وغير العلمية قديمة جدا، تمتد منذ اليونانيين وتسهر على ضبط حدود العلم، وإلغاء كل ما هو غير

---

1 - جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر: فاتن البستاني، مراجعة محمد بدوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت- لبنان، ط1، 2008، ص185.

2- Serres Michel, les cinq sens, édition Grasset et Fasquelle, France, 1985, p.370.

3- Serres Michel, les cinq sens, Op.cit., p. 370.

علمي، ولعلّ أنّ الأمر ازداد تعصُّبًا خاصة بسيطرة الفكر الوضعي على الواقع الإنساني، حتى أصبحت المعرفة التي ليست معرفة علمية ليست بمعرفة بل جهل.

رفض **ميشال سير** في البداية التّطرق لمسألة التّوفيق بين العلوم الإنسانية والدّقيقة، ذلك أنّ هنالك اختلافات وتمايزات بينها، يقول:" العلوم الإنسانية تراقب والعلوم الدّقيقة تلاحظ، الأولى لها عمر الأساطير والثّانية جديدة وُلدت معنا هي التّاريخ. الأسطورة والمسرح والتّمثيل والسّياسة لا تُعلِّم الملاحظة وإنَّما تلتزم بالمراقبة "[1]، فالعلوم الإنسانية وجودها قديم جدا مقارنة بالعلوم الدّقيقة، حيث أنّه قد كانت الأسطورة القراءة الأولى للتّاريخ الإنساني وذلك في بداية تفكيره، كما أنّها كانت وسيلة معرفة أولى لديه وكانت توصف بأمِّ العلوم أو العلم البدائي، بدليل أن التّاريخ في الكثير من المرّات ما تكون الأساطير أحد موارده، كما أنّها وسيلة لتفسير وفهم مظاهر الكون. ويضيف قائلاً للتّمييز بينهما:" العلوم الدّقيقة تُكوِّن نظريات متقنة لكن وفية، دقيقة وثابتة، القط يبقى عندها قط (مبدأ الهوية)، العلوم الإنسانية والاجتماعية تصف نظريّات أكثر زيفٍ من الزّيف، جدُّ غشَّاشة من الغش وذلك لأجل إحباط أشيائهم، وكلّ شيءٍ يصبح ممكن البقرة تصبح امرأة أو الله ثور، حتى مبدأ الهوية يختلف أو يتغيّر "[2].

فما نلمسه من ذلك أنّ ما يميّز العلوم الدقيقة أنّها تستعين بالمنهج الاستقرائي والمنطق الصوري معا، بمعنى أنّ التّجريب يكون وفق مبادئ العقل والتي من بينها نجد مبدأ الهوية وعدم التّناقض ومبدأ السّببية، في حين العلوم الإنسانية بعيدة عن الحقيقة واليقين، بدليل أنّها لا تلتزم بمبادئ العقل. كما نجد **ميشال سير** جعل من الشّيطان راعٍ للعلوم الإنسانية في حين الله راعٍ للعلوم الدّقيقة، وهذا كناية عن المكر والخداع الذي تتّصف بها العلوم الإنسانية، واليقين والصرامة الذي تتمتّع بها العلوم الدّقيقة، حيث أنّ الشّيطان هو رمز للمكر والله هو مثال للحقيقة، يقول:" الله يحرس العلوم الدّقيقة منذ العصر الكلاسيكي، البعض يقول أنّه يحملها والبعض الآخر يقول أنّه يفضِّلها، الشيطان يسيطر على العلوم الإنسانية، فهو مُخادع وغشّاش ينشر خدعا شديدة وحادة لكي يُسقط قوّة وصلاح الله ولأجل الظّفر بمكانته "[3].

لكن الوضع في الفترة المعاصرة في نظر **ميشال سير** قد تغيّر تماما، بمدِّ الجسور بين المعرفة الدّقيقة والمعرفة الإنسانية، يقول:" نعم عصر التّنوير كان جدُّ فعّال في التّصنيف، الآن أرى أنّ هنالك الكثير من الجانب العقلي في أعمال **مونتاني** (Montaigne) و**فيرلين** (Verlaine)، كما هنالك جانب لاعقلي

[1]- Serres Michel, les cinq sens, Op.cit., p. 38.

[2]- Ibid, p. 41.

[3]- Ibidem.

مبعثر في الفيزياء أو الكيمياء الحيوية. العقل يتوزّع إحصائيًا في كلّ مكان ولا واحد يدّعي أنه حصريا في مكان واحد"[1].

يُؤكد **ميشال سير** على صحة ما ذهب إليه، مبرزا في الآن نفسه أهمية العلوم الإنسانية من خلال تجربته الخاصّة مع الفيلسوف **ميشال فوكو**، يقول:" لقد لعب **ميشال فوكو** علامة العلوم الاجتماعية وأنا ألعب علامة العلوم الطبيعية، وذلك حتى نتمكّن من التّعاون بدون صعوبات، حيث لم يكن لدينا أيّ اضطراب عمل معا حول المنهجية "[2]، وإن كان يُقرّ برفضه في البداية لفكرة الرّبط بين العلوم الدّقيقة والأدب والعلوم الإنسانية، حيث أنّه كان يرفض الخوض في هذه المسائل إلاّ أنّه عدل عن هذا الموقف فيما بعد، يقول:" لقد وافقت على هذه المحادثة التي قد رفضتها سابقا، لأنّه بالضّبط هذا الرّأي لم يكن واضحا بعد، نعم ارتحلت في كلّ مكان (الرياضيات القديمة والمعاصرة) والرياضيات في حدِّ ذاتها عالم، الفيزياء القديمة والحديثة والبيولوجيا المعاصرة عبر ما يسمّى العلوم الإنسانية، وذلك عندما كتبت الضجيج (Parasite)، روما (Rome) والتّماثيل (Statues) "[3]. ويضيف قائلا:" يمكنني العودة لتجربتي؟ لقد حصلت على شهادة في الدِّراسات الكلاسيكية، في اللاّتينية واليونانية، كما تمَّ تدريبي في مجال العلوم، حصلت على شهادتين في الرياضيات. من خلال كامل حياتي لم أترك أبدا هذان الطّريقان، ما زالت أقرأ **بلوتارخ** (Plutarque) والفيزيائيين العظماء في الآن نفسه وذلك كرفض للتّفرقة بين العلم والأدب "[4].

7- العلوم الإنسانية على خطى العلوم التجريبية:

يقول **ميشال سير**:" نحن نبقى مسحورون بواسطة الحكم التّالي: هذا ينتمي وهذا لا ينتمي للعلم، هذا داخل وهذا خارج، متضمِّن ومقصى، إستراتيجية المدار، لكن الظاهرة ذات أصل ديني حيث يميّزون بين المكان الدّنس والمكان المقدَّس"[5]. ففي اعتقاده أنّ هذه الفكرة أي الفصل مستمدَّة من الدِّين ولا تمت بصلة لحقل المعرفة، فالمعرفة لا تؤمن بالحدود وليست حكرًا على فئة دون الأخرى، فهي ليست حكرًا على العلماء أو الفلاسفة أو الأدباء، في حين نجد في مجال الدّين أنّ العبادة تتطلّب مكانًا طاهرًا ولا تُؤدَّى في كلِّ مكان، حيث أنّ هنالك انفصال بين المكان المقدَّس والمكان المدنَّس، لأنَّه لا يمكن أن يختلط الاثنين من دون أن يؤثِّر ذلك على المقدّس، وعليه لا يجوز أن يلمس المدنَّس المقدَّس لغياب التجانس

[1] -Serres Michel with Bruno Latour, Conversation on science, culture and time, Op.cit., p. 50.

[2]- Serres Michel with Bruno Latour, Conversation on science, culture and time, Op.cit., p. 38.

[3] - Ibid, p. 65

[4] - Ibid, p. 50.

[5] - Serres Michel, les cinq sens, Op.cit., p. 370.

بينهما. يقول:" فضاء العلم حافظ على قِيَمنا الأخيرة، مُورِس على آباءنا ويمارس أيضا على عيّنة من معاصرينا عامل جذبٍ لأمرٍ مقدَّس، كل عمل الإبستمولوجيا أو تاريخ العلوم يمكن قراءته في ضوء ذلك"[1].

8- العارف الثّالث وعلاقته بالمنطق الصوري:

يقول **ميشال سير** عن العارف الثّالث:" التّعلم هو وضع في حالة متبدَّل الاستقرار (métastable)، الكفاءة أو المعرفة التي أبحث الحصول عليها ليست موجودة لحدِّ الآن، لكن أتوقّع الشّكل المحتمل وأنا أحاول تحقيق ذلك "[2]، لأنّ الثّالث (le tiers) هي الوضعية الوحيدة في نظره التي تمكِّن من الإبداع، كونها لا تضبط مكانا معيّنا، كما يؤكِّد على عدم وجود علاقة بين المنطق الصوري أو المبدأ الثّالث المرفوع بالضّبط والعارف الثّالث، يقول:" مبدأ الثّالث المرفوع والذي هو من بين ركائز المنطق الغربي، يؤسِّس لفكرة أنّه لا يمكن تأكيد الصِّحة والخطأ في الآن نفسه، أو أنّ الشّيء لا يمكن أن يوجد ولا يوجد. في جهة المعرفة يتوجّب التّفكير في ' المكان الثّالث ' لشيء موجود وغير موجود أيضا[3]. فما يؤسِّس لهذا النّوع من المعرفة هو مبدأ الثّالث غير المقصى أو المرفوع، حيث هو بين الاتِّزان واللاّاتزان، بين الوجود والعدم، كما أنّه في اعتقاده هو الذي بإمكانه تجاوز الانشقاق بين الآداب والعلوم كون أنّ العلم المعاصر أصبح يؤمن بالمنطق المتعدِّد القيم، فالقضية تقبل الصّواب والخطأ في الآن نفسه أي مبدأ الاحتمال.

لقد كان يُعتقد قديمًا إلى غاية القرن 19م أنّ حدوث أيَّ ظاهرة طبيعية يكون وراءها سبب معيَّنٌ وثابت، وهذا ما يسعى الاستقراء لكشفه، لكن بعد تقدُّم العلوم في القرن 20م أصبحت القوانين احتمالية، وخير دليل على ذلك ما توصّلت إليه الفيزياء المعاصرة حول طبيعة الضوء، فقد كان نقاش كبير بين الفيزيائيين، بين اتّجاه يؤكِّد على الطبيعة الموجية للضّوء واتجاه ثاني يذهب إلى اعتبار الضّوء ذو طبيعة مادية، لكن النّتيجة التي خلُصت إليها الأبحاث أن الضّوء مادة وموجة في نفس الوقت، كما يرى **هيجل** أن التّناقض أو المنطق الجدلي هو القانون العام الذي يحكم الطّبيعة على عكس ما ذهب إليه **أرسطو**، إذ يؤكّد على أهمية التّعارض بين الأفكار وعلى قيمة التّطور والحركة في فهم الأحداث، لأنّ الظّواهر المتضادة تتَّحد وتتآلف معًا ولا تلغي بعضها البعض.

[1]- Ibidem.

[2]- Serres Michel , pantopie: de hermès à petite poucette, Op.cit., p. 191.

[3]- Serres Michel , pantopie: de hermès à petite poucette, Op.cit., pp. 195-196.

خاتمة:

خلاصة القول إن العقل العلمي الجديد- الجديد عند **ميشال سير** يؤمن بحتمية الاختلاف، يسعى نحو تحرير العلم من كل الحتميات التي فُرضت عليه، والتي تقتل الجانب الإبداعي فيه، أبرزها العقلانية، وهذه المهمة موكلة للفلسفة وذلك بتبنيها لمفهوم الفوضى والصدفة واللانظام، لأن في نظره الفيلسوف هو راعي التعددية. وكذلك السعي نحو الجمع بين مختلف مجالات المعرفة سواء علمية أو أدبية في بوتقة واحدة، تخالف تماما ما ذهب إليه **غاستون باشلار**، من خلال تبنيه لمفهوم النقل أي التصدير والاستيراد، كونه لم يميز بين المعرفة العلمية والمعرفة العامية، بل بالعكس من ذلك تماما سعى جاهدا إلى رفض الحواجز والتقريب أكثر فأكثر بين كل مجالات المعرفة عند الإنسان (علمية وأدبية).

قائمة المصادر والمراجع:

1- بول فيرباند، ثلاث محاورات في المعرفة، تر: محمد أحمد السيد، منشأة المعارف بالإسكندرية، الإسكندرية.

2- جون ليشته، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر: فاتن البستاني، مراجعة محمد بدوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت- لبنان، ط1، 2008.

3- فيرابند بول، العلم في مجتمع حر، ترجمة وتقديم وتعليق السيد نفادي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الكويت 2001

4- Serres Michel, Genèse, Grasset, Paris, 1982.

5- Serres Michel, la naissance de la physique dans le texte de Lucrèce, les éditions de Minuit, paris, 1998.

6- Serres Michel, pantopie: de hermès à petite poucette, édition le pommier, Paris, 2014.

7- Serres Michel, La traduction, les édition de Minuit, Paris, 1974.

8- Serres Michel, les cinq sens, édition Grasset et Fasquelle, France, 1985.

9- Serres Michel, les origines de la géométrie, Flammarion, paris, 1993.

10- Serres Michel with Bruno Latour, Conversation on science, culture, and time, translated by Roxanne Lapidus, édition François Bourin, France, 1990.

11- Marcel Nguimbi et Clarisse Okandzi Mouandeke, L'arbre de la connaissance (Popper versus Descartes), L'harmattan, Paris, 2017.

12- Christiane Frémont, philosophie pour le temps présent, cahiers de l'Herne Michel Serres, édition de l'Herne, 2010.

13- Bensaude-Vincent Bernadette, 'Michel Serres, historien des sciences'. **Article disponible sur le site** : https: //halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-0050777.

[14]- Pierre-Marc Gendron, le voyage extraordinaire. la méthode et le discours de Michel Serres, mémoire présenté à la faculté des études supérieures de l'université Laval, Québec, aout 2007.

[15]- Edgar Morin, La méthode (la nature de la nature), édition du Seuil, (points), Paris, 1982.

[16]- Brice Favier-Ambrosini et Matthieu Quidu, l'ancrage symbolique des œuvres épistémologiques de Gaston Bachelard, Michel Serres et Edgar Morin, revue philosophique de Louvain, 2015, vol. 113, N 4, 2015.